المحاضرة الأولى: النثر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا

01- الأدب وتاريخ الأدب:

تدل كلمة أدب على معانٍ متعددة منها دعوة النّاس إلى مأدبة (إلى طعام)، ومنها تهذيب النفس وتعليمها، ومنها الحديث في المجالس العامة، ومنها السلوك الحسن، ومنها الكلام الحكيم الذي ينطوي على حكمة أو موعظة حسنة أو قول صائب. وأما المعنى المقصود هنا فهو الذي يطلق على مجموع الكلام الجيد المرويّ نثرا وشعرا. فالأدب إذن هو المعنى المبتكر في اللفظ الفصيح والتعبير المتين والأسلوب البارع والخيال الواسع.

أما تاريخ الأدب فهو فن من فنون المعرفة يتعلق بتعاقب أعصر الأدب وبتطور الخصائص الأدبية مع الإلمام بسير الأدباء وبإحصاء إنتاجهم وبالتمييز بين خصائصهم.[1]

02- الأدب نثر ونظم

الكلام الجيد نوعان: نثر وشعر. أما النثر فهو الكلام الذي يجري على السليقة من غير اِلتزام وزن. وقد يدخل السجع والموازنة والتكلّف الكلام ثم يبقى نثرا، إذا بقي مجرداً من الوزن. وأما النظم فهو الكلام الموزون المقفى. فإذا امتاز النظم بجودة المعاني وتخيّر الألفاظ ودقة التعبير ومتانة السبك وحسن الخيال مع التأثير في النفس فهو الشعر. وقد تكون هذه الخصائص في الكلام من غير أن يكون موزونا ونظل نسميّه شعرا. لأن الشعر في حقيقته ما خَلَبَ العقل واستولى على العاطفة واستهوى النفس.[2]

فالنثر على هذا الأساس فن من الفنون القولية المميزة عن الشعر يرتقي بجودة اللفظ ومتانة السبك وحسن الأسلوب، وهي ميزاته الفنية التي تجعله ينأى عن مستوى الكلام العادي، وقد ركز النقاد القدامى على مسألة الوزن والقافية فارقا جوهريا بين النثر والشعر.

---

[1]- ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار الملايين، بيروت، لبنان، ج1، ط1، نيسان 1981، ص42، 43، 44.

[2]- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ص44.

وقد أثارت قضية أسبقية الشعر أم النثر جدلا واسعا بين الدارسين والباحثين تعقبها مسألة الأفضلية بين الشعر والنثر، وتبقى الإجابة على هذه البوادر النقدية رهن الخلفية المعرفية والفكرية والمنهجية لهؤلاء الباحثين والمشتغلين على الدرس النقدي العربي.

03- ... وكلاهما سابق في بابه:

الكلام المنثور هو الكلام الطبيعي المألوف في الحياة اليومية، وعلى ذلك كان الكلام المنثور أسبق في التعبير عن مقاصد الإنسان وعن أفكاره ثم حدث الكلام الموزون في المناسبات العارضة في حياة الإنسان كالحداء (سوق الإبل) والرثاء والتغني بالحب، لأن الوزن والقافية يضفيان على الكلام شيئا من الموسيقى فيصبح أوقع في النفس وأشد تأثيرا في الجماعات. وبما أن الشعر يحتاج إلى شيء من التكلف والجهد فقد كان أقل من النثر فكثرت رغبة الناس فيه وفي روايته. ويبدو أن العرب اتخذوا الشعر سبيلا إلى التعبير عن عواطفهم قبل أن تنشأ عندهم براعة مماثلة في النثر.[3]

وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان.

ومن المؤكد أنهم كانوا يُشغفون بالقصص شغفاً شديداً. وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله: كان وكان، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث، وشباب الحي وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة. وهو ما يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء.[4]

04- ميزاته العامة:

---

[3]- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ص45.

[4]- ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي 1، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط11، ص398، 399.

النثر الجاهلي وليد الطبع، بعيد عن الصنعة والزخرف والغلو، وإن كان هنالك ما يشبه الصنعة في ما هو من السجع وما إليه من تطلب بعض الإيقاع الموسيقي المكتسب من المزاوجة في الألفاظ والجمل ومن الفواصل والقوافي السجعية.

فالنثر الجاهلي هو الكلام الحي لأنه لغة الشعب في مختلف طبقاته تسير مع أخلاق البدوي وبيئته، وهو من ثمَّ قوي اللفظ متين التركيب، سطحي الفكرة ينزع نزعة الإيجاز. والموسيقى في الجملة والأسلوب ويرسل مقطعا لا يربط بين أفكاره رابط.

كان العرب يستعملون النثر لأغراض مختلفة، فقد كان وسيلة للتفكهة، والتعليم، كما كان وسيلة للعمل الاجتماعي والسياسي ومن ثمَّ كان له فنون عدّة منها المثل والخطابة والقصص.[5]

وما دام للنثر الفني أغراض ومضارب فنية، فقد ازدهر واستقام عوده في العصر العباسي، على أن الثابت لا المتحول أن النثر قد خرج من ضلع الشعر، يحملان نفس الخصائص وينتميان إلى البيئة نفسها، ولعل هذا التقارب هو ما أربك النقاد القدامى حول مسألة الأفضلية والأسبقية ومن ثمَّ عقد أوجه الاختلاف بينهما، التي حصرها القدامى في الشكل الموسيقي (الوزن والقافية).

وللبقلاني (تـ 403هـ) رأي صريح في أسبقية النثر الفني على الشعر، فقد وجد النثر أولا، ثم جاء بعده الشعر شيئا فشيئا، إذ كان يعرض للناس في تضاعيف الكلام، ثم إستحسنه الناس وتتبعوه وتعلموه، ولابد أن الكلام إذا ارتقى لدرجة أن يصير موزونا من غير قصد، ويرد شعرا في بعض فقراته، يكون قد بلغ مستوى من التطور يصل به مرحلة النثر الفني، ثم أعقب ذلك ظهور الشعر واهتمام الناس به.

و عكس هذا الرأي ذهب إليه بعض المستشرقين، وشايعهم في ذلك الدكتور طه حسين الذي رأى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة بدائية أولية،"والحياة" الأولية لاتتطلب النثر الفني لأنه لغة العقل بقدر ما تتطلب الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال.

ومهما يكن من صحة هذا الرأي أو ذاك فقد كانت المادة النثرية التي وصلت إلينا من العصر الجاهلي مدعاةً للشك من الباحثين والدارسين، على اعتبار أن الخطاب النثري الجاهلي ظل

---

[5]– ينظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، ط2، 1953، ص205

شفاهيا يتداوله الرواة حقبة من الزمن، ولم يدخل حيز الكتابة إلى أواخر القرن الثاني الهجري.[6]

وهذا ما يطرح ضمنيا قضية الانتحال والاندثار، الذي مسّ بدوره النثر على قسيمه الشعر على اعتبار أنه أعسر في الحفظ والعلوق في الذاكرة لمجابهة الزمن والنسيان.

05- تطور النثر وفنونه:

كان العصر العباسي الأول عصرا خطيرا حقا في تطور النثر العربي، إذا تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية، بحيث دخل جميع ذلك في تركيبه وائتلف مع نسيجه، وتولد منه جديد تلو جديد، وتم هذا التحول عن طريقين: النقل والترجمة وتعرّب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة.

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطورا واسعا، إذ حمل خلاصة هذه المدنية وملئت أوانيه بشرابها الجديد الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة، وقد أظهر النثر الأدبي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوي كل هذه الينابيع و أن يتسع له صدره، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لا يكاد يحدُّ أو يحصى.

وكان ذلك إيذانا بتعدد شعب النثر العربي وفروعه، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي، وأصبح فيه أيضا النثر التاريخي، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع، ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة بل انبرت العبقرية العربية تضع العلوم اللغوية والشرعية.[7]

إن تطور الخطاب الأدبي العربي (الشعري والنثري) يرتبط بالتطور الحضاري والفكري للأمة العربية، يتغيا تلبية حاجاتها المختلفة، ويتوسل في هذا بفعل الكتابة الذي أحدث نقلة نوعية في الأدب من نزعة شفاهية إلى نزعة كتابية اِرتبطت بفنون النثر «لأن الانتقال من النزعة الشفاهية إلى النزعة الكتابية على مستوى الإبداع والفكر قد حدث مع نزول القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم هو النموذج الكتابي الأول الذي يفارق نماذج الشفاهية بإعجازه،

---

[6]– ينظر: مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، المسيلة، الجزائر، ط1، 2010، ص14–15.

[7]– ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 3، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8، ص441–442.

وينتقل بالعقل العربي الذي يتلقاه، ويتوجه إليه من حال البداوة إلى حال الحضارة، من حال الوعي بالقبيلة، إلى حال الوعي بالأمة، من حال الاستجابة إلى الطبيعة إلى حال البناء المعقد للثقافة، ويكتمل معنى هذه الدلالة الرمزية حين نضع في اعتبارنا أن أول ما أنزل من القرآن الكريم كان أمرا بممارسة فعل القراءة الذي هو الوجه الآخر لفعل الكتابة».[8]

06- المفاضلة بين الشعر والنثر:

لقد اِبتدأت مسألة المفاضلة بين طرفي ثنائية (الشعر والنثر منذ أوائل القرن الثالث الهجري، حيث أخذ الخطاب النثري في العصر العباسي يعرف تطورا كبيرا ونضجا على مستوى الشكل والمضمون، بينما بدأ الخطاب الشعري في الانحصار مقارنة بازدهاره في عهد الدولة الأموية وما قبلها. ولعل هذا ما يؤسس لشرعية التساؤل حول أفضلية الخطاب الشعري أم نظيره النثري؟

وهي القضية التي أثارت جدلا واستحضرت حججا بين الأدباء والنقاد، حيث سعى كل منهم إلى التدليل والتعليل لفرض وجهة نظره على حساب الآخر.

وفي هذا الصدد يمكننا كإجابة منهجية بعيدة عن التحيز أن نقف عند فضائل الخطاب الشعري ومزاياه كما يأتي:

- أن الشعر يتوفر على النظم (الوزن والقافية) مما يسهل حفظه، ويضمن له مبدأ السيرورة على ألسنة الرواة.
- أن الشعر يحتوي على الشواهد في اللغة والنحو، ويحتج به على صحة الأفكار.
- للشعر أهمية في المحافل والمجامع العامة، كما أنه يستعمل في الغناء.
- أن الشعر ديوان العرب، ومصدر أخبارهم وأنسابهم، ومستودع علومهم وآدابهم.
- أن النثر يحتاج إلى الشعر لأنه يحلىَّ به، بينما الشعر لا يحتاج إلى النثر.

كما يمكننا أن نُجمل فضائل النثر فيما يأتي:

- أن النثر أصل الكلام، والشعر فرعه، والأصل أشرف من الفرع.
- أن الكتب السماوية نزلت نثرا .
- أن القرآن الكريم نزل نثراً –والنبيّ ﷺ- ما تكلّم إلا نثرا ولم ينظم بيتا واحدا من الشعر .

---

[8]– جابر عصفور: القلم واللسان، ص76، نقلا عن مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص17–18.

- أن النثر يتوفر على الوحدة، وهو بعيد عن التكلف لأنه طبيعي يتكلمه الإنسان بالفطرة.
- مكانة الكاتب في المجتمع والدولة عظيمة مما يجعل الشعراء في خدمته، فالشاعر يحتاج إلى الكاتب، والكاتب لا يحتاج إلى الشاعر.[9]

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن للخاطبين الشعري والنثري فضائل ومزايا تحفظ خصوصية كل منهما، ومسألة الأسبقية والأفضلية قضية متأصِّلة في الدرس النقدي العربي لايمكن الفصل فيها.

[9]– مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص70–71.